حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الغربة في شعر المتنبي

الدكتور عبد الرحمن محمد الهويدي
جامعة آل البيت / قسم اللغة العربية

ملخص بحث:
الغربة لونان: مكانية وروحية، ولقد عاش المتنبي الغربتين مُضافاً إليهما الغربة الزمانية، لذا بدا شعره يحمل مضامين الرفض والتمرد والياس والعقل، ولمّا تداخلت هذه المضامين في نفسه حاول أن يهرب منها بالرحلة بحثاً عن الذات، وعن القائد النموذج، ولمّا لم يجده، أو تصورّ أنه لم يجده، في بلاد العرب، اتجه إلى خراسان، ولكنه عندما لم يجده هناك حاول أن يرجع إلى الكوفة، أو إلى حلب كما تقول الروايات، ولكنه لم يصل، حيث مات مقتولاً، فالمتنبي بدأ حياته غريباً، ومات غريباً، وطوبى للغرباء كما قال الرسول الكريم(ﷺ).

لا شك أن الأدب وليد بيئته، يتأثر بها، ويؤثر فيها، وتتالف عوامل كثيرة سياسية واجتماعية وثقافية لتحديد اتجاهه وسماته، وإن من بين الموضوعات التي ظهرت في شعر المتنبي يبرز موضوع الغربة، ويجدر بنا قبل الخوض في دراسة الموضوع أن نحدّد ماذا نقصد بالغربة[١].

إن معنى الغربة كما ورد في المعاجم العربية يشير إلى أكثر من دلالة، لعلّ أبرزها وضوحاً تلك التي ترتبط بالمكان والانتقال عنه.

فالأزهري في تهذيب اللغة يشير إلى هذا المفهوم بقوله: يُقال: الغرب: الذهاب والتنحي، ويُقال: أغربته وغرّبته إذا نحّيته، والغرب هو التنحّي عن حدّ الوطن[٢].

ويذهب الجوهري في الصحاح إلى قريب من هذا المعنى بقوله: التغريب: النفي عن البلاد، وأيضاً غرب: بعد، واغرب عني: أي تباعد[٣].

وإلى مثل هذا نحا ابن منظور في لسان العرب عندما قال: الغربة والغرب: النوى والبعد، ويُقال: أغربته وغرّبته إذا نحّيته وأبعدته، والتغريب: النفي عن البلد، والغربة والغرب: النزوح عن الوطن[٤].

أما الزبيدي صاحب التاج، فيرى أن التغرّب: هو الذهاب والتغرّيب: النفي عن البلد[٥].

إن الدلالات المكانية سابقة الذكر هي الدلالات المألوفة التي تتبادر إلى الذهن إذا ذكرت لكلمة الغربة، ولكن المعاجم العربية مع ذلك تشير إلى دلالة أخرى تتصل بالمستوى الزمني أو الوقتي، بمعنى أن الإنسان يشعر بغربة بين أهله ومواطنيه، ويشعر أن الزمن لم يعد زمانه، أو أنه جاء في زمن غير زمانه، ففي تهذيب اللغة كذلك في اللسان والتاج: رجل غريب ليس من القوم، وفي حديث النبي(ﷺ): إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء[٦].

كذلك نجد إشارة مختصرة تحمل دلالة البعد والتنحي عن الناس وتنطوي على معنى صوفي لاشك أنه تعمق بعد ذلك واتسعت دلالته، بل إننا نجد مضامين جديدة لدى الصوفية، فالغرب: الذهاب والتنحي عن الناس، هذا المعنى لا نراه فقط في عزلة الصوفي عن الناس، بل تطور ليعبر عن غربة الروح في الجسد وأيضاً عن غربة الإنسان الصوفي في هذا العالم ورغبته في العودة إلى عالمه الأول أو الأمثل، الروح[٧].

إن دراستنا لغربة أبي الطيب المتنبي ستعتمد أساسياً على تلك المعاني التي وردت بها الكلمة في اللغة، فورودها في الشعر لا يخرج عن تلك المحاور والدلالات التي يمكن أن نميز

(١) حول هذه المفاهيم انظر: الاغتراب - سيرة ومصطلح، د. محمود رجب، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، مادة عزب.
(٣) الصحاح، الجوهري، مادة عزب.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، مادة عزب.
(٥) تاج العروس، الزبيدي، مادة عزب.
(٦) لسان العرب، تاج العروس، مادة عزب.
(٧) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، الشيخ ناصيف اليازجي، دار بيروت، بيروت، ١٩٨١، ٣٤٢/٢.

منها ما نسميه بالغربة المكانية والغربة الزمانية والغربة الروحية.

أما الغربة المكانية فنعني بها ذلك المعنى المباشر والملاصق لاستخدام الكلمة، وهو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه، هذا النوع من الغربة نراه ممثلاً في شعر الشعراء الذين هجروا أوطانهم وديارهم، وانتقلوا إلى أرض لم يألفوها، فعاشوا فيها غرباء، يعانون آلام الفراق والشوق والحنين إلى أوطانهم التي لا تفارق صورتها خيالهم.

هذا النوع من الغربة ليس جديداً على الشعر العربي، فكم من الشعراء، بما في ذلك شعراء العصر الجاهلي، الذين عبروا في قصائدهم عن مظاهر هذا النوع من الغربة من شوق لأهليهم وأحبتهم، وحنين لديارهم، هذا الإحساس بالغربة ارتبط بالإنسان على مر تاريخه في كل وقت، وفي كل مكان، وليس حكراً على الشعر العربي وحده.

والناظر في شعر أبي الطيب المتنبي يجد أن إحساسه بالغربة المكانية ليس قوياً، حتى لقد أصبحت هذه الغربة مرتبطة أساساً به ارتباطاً وثيقاً، فلو رسمنا خطاً بيانياً لسير حياته لوجدناه قد غادر الكوفة صبياً ولم يرجع إليها إلا لماماً فهو لم يرتبط بمكان واحد، كما أنه لم ينتم لبقعة واحدة، بل بدا وكأنه كان يعد نفسه لكل البقاع، شأن الدعاة، فلم يرد ذكر الوطن في شعره، إلا مقترناً بالعوامل الأخرى، ولعل أبرزها مطلع إحدى قصائده الذي يصور ضياعه التام:

بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن

فالمتنبي لم يكن من ذلك النوع من الشعراء الذين أحسوا بالضعف عندما تحول عن الوطن، كالذي قال قديماً:

وحبب أوطان الرجال إليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا

ولم يبك كما فعل شوقي[1]:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم ناسى لوادينا

وإن ظهر أن المتنبي كان مؤمناً بالمصير الذي ينتظره[2]:

أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم
وأين من المشتاق عنقاء مغرب

فالمكان الذي كان ينشده المتنبي هو المكان الذي يحقق فيه طموحه، ويصل إلى هدفه.

أما الغربة الزمانية فهي تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية مواتية تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه، يحس بها وتملأ عليه أقطاب نفسه مع أنه يعيش في مجتمع قد نشأ فيه، ففي ظل هذا الصراع السياسي الدائم في المجتمع العباسي، فقد الاستقرار، وتخلخلت القيم، وانعكست الأوضاع على نحو أحسن معه الشاعر بغربة حين فقد مكانته المرموقة، وحال الصراع بين وصول الشاعر الذي يحس بالتميز والتفرد إلى المكانة التي يشعر أنه جدير بها، وأدى ذلك إلى إحساس بعدم الرضا عن زمنه، وعن حكامه الذين لم يقدروه حق قدره، بل إنهم قد وقفوا مع الزمن ضده.

إن موقف المتنبي من الزمن كان من عوامل شهرته، فاشعاره في ذم الناس والسخرية من أهله نالت شهرة واسعة على مر العصور وفي كل الآفاق، فهو يوجه النصح لكل الطامحين بالمراتب العالية ألا يلتفتوا إلى الزمن ما داموا قادرين على الحركة[3]:

لا تلق دهرك إلا غير مكترث
ما دام يصحب فيه روحك البدن

ويقول[4]:

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم

فالأمر يتصل بتحقيق الأهداف ونيل المطالب، فالذين وصلوا إلى ما يريدون جاءوا الزمن في زمن الاقتدار، أما هو فقد جاءه في زمن العجز، فهو يسقط عدم تحقيقه ما يصبو إليه على الزمن الهرم العاجز.

وتصل نقمته على الزمن وناسه مداها حين يقول[5]:

ودهر ناسه ناس صغار
وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك
مفتحة عيونهم نيام

(١) الشوقيات، أحمد شوقي.
(٢) الديوان ٢٩٢/٢.
(٣) الديوان ٣٤٣/٢.
(٤) الديوان ٣٨٦/٢.
(٥) الديوان ٢٣١/١.

فهو يتبرأ من أهل زمانه، وينكر انتسابه إليهم، وقد عرضه في هذه الصورة الرائعة التي تبرز وجوده بينهم على نحو ما يوجد الذهب مختلطاً بالتراب رغم اختلافه عنه، ورغم ما بينهم من بون شاسع في القيمة، وهم وإن بدوا في زي الملوك وجلسوا مجالسهم فإنهم في حقيقتهم أرانب.

هذا الوصف في الحقيقة يأتي في إطار واسع يضع فيه الناس موضع البهائم والأنعام[1]:

أرى أناساً ومحصولي على غنم

وذكر جود ومحصولي على الكلم

ويقول[2]:

وإنما نحن في جيل سواسية

شر على الحر من سقم على بدن

حولي بكل مكان منهم خلق

تخطي إذا جئت في استفهامها بَمنْ

ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً

إلا أحقّ بضرب الرأس من وَثَنْ

فهو يستكثر على الناس الذين يتعامل معهم حتى بسؤال مَنْ التي هي للعاقل، أمّا الملوك فإن ثورته عليهم أعمق فإنهم أحقّ بتكسير رؤوسهم من الأوثان.

ونراه يقرن بينهم وبين زمانهم صفاتهم القبيحة، وخصالهم المذمومة كما في قوله[3]:

أذمّ إلى هذا الزمان أهيله

فأعلمهم فَذم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصرهم عَمٍ

وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى

عدواً له ما من صداقته بدّ

وأرحم أقواماً من العّي والغبى

وأعْذَرُ في بغضي لأنهم ضدّ

فتلك هي صفاتهم وأخلاقهم، وهو ليس مثلهم، لأنه ضدّ لهم، وعلى عكس ما هو عليه، ممّا يتيح له وسائل العجب والافتخار على الرغم ممّا يخلفه ذلك في نفسه من إحساس بالتفرّد والتميّز، ومن ثم بالغربة والقلق بين أناس لا يقدرونه حق قدره فضلاً عن الاعتراف بتميزّه. ومع ذلك راح الشاعر يقدم صوراً رائعة يبرر من خلالها ضياع مكانته في المجتمع على الرغم من وفور فضله، فلا عيب فيه هو، وإنما العيب في زمانه، وأبناء زمانه، فإن شرد أو أهين، أو اغترب أو غرب يبقى معتدا بنفسه، لذا بالغ كثيراً في الفخر بنفسه وفنه، مما سبب له كثيراً من الخصومات والعداوات حتى مع أولئك العظماء الذين توجه إليهم مادحاً، ويكفي أن نتامل أبياته[4]:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي

وبنفسي فخرت لا بجدودي

إن أكن معجباً فعجب عجيب

لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا تُرب الندى ورب القوافي

وسمام العدى وغيظ الحسود

فهذا الفخر، وهذا الشعور المتضخم بالذات وعظمتها كان أقوى من الشعور بالغربة في عالم ليس من عالمهم، أحس معه الشاعر أنه نبي أهين، لأنه لا كرامة لنبي في وطنه[5]:

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ

كمقام المسيح بين اليهود

أبدا أقطع البلاد ونجمي

في نحوس وهمتي في سعود

أنا في أمة، تداركها اللـ

ـه غريب كصالح في ثمود

هذا الإحساس العظيم بالغربة في الوطن وبين لدانه وأصحابه أبناء المجتمع دفعه إلى على الرحيل بحثاً عم يقدره ويعرف مكانته على نحو ما يقول[6]:

خليلي ما هذا مناخاً لمثلنا

فشدا عليها وارحلا بنهار

الشاعر لا يطيق الظلم، ولا يقبل الإهانة، ولا يرتضي الذل، لذا فإنه يختار الرحيل في وضح النهار، إن هذه الثنائية من الإحساس بالغربة يبقى مسيطراً على نفسه، يملأ أقطارها

(١) الديوان، الديوان تحقي عبد الوهاب عزام، ص٣٧.

(٢) الديوان ٣٣٦/١.

(٣) الديوان ١١٦/١.

(٤) الديوان ١١٨/١.

(٥) الديوان ١١٤/١.

(٦) الديوان ١٢٣/١.

وبخاصة أنه يجد التناقض فيقول[1]:

أبدو فيسجد مَنْ بالسوء يذكرني

فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني

إن النفيس غريب حيث ما كانا

فاعماق الشعار تنزّ بمرارة الخذلان، فهو يشعر بالغربة أينما سار، أحسّ بها في وطنه، ووجدها في الأماكن التي ارتحل إليها، لذا فإن حدّه التشخيص والإدانة تصعد عنده لدرجة عالية فيعلن استعداده للقتال[2]:

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً

ومَنْ عصى من ملوك العُرب والعجم

ويرى أن الناس هم الداء، فيرتفع مستوى الغربة الاجتماعية في نفس الشاعر إلى حالة اغترابية أكثر مأساوية وهي خذلان الأصدقاء، وخذلان الناس جميعاً[3]:

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما

فما أحَدٌ فوقي ولا أحد قبلي

لذا فإنه يلجأ إلى المساواة بين الناس وبين الأسد لأنه أصبح يشعر أنه يعيش في غابة لا فرق بين الناس وكواسرها؛ فالكل متوحش متربص بالآخر[4]:

أجارك يا أسد الفراديس مكرم

فتسكن نفسي أم مهان فمسلم

ورائي وقدّامي عداة كثيرة

أحاذر من لصّ ومنك ومنهم

فلا يمكن قصر الاغتراب هنا على شروطه الموضوعية، من حيث كونه تغريباً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، إذ إن العوامل الذاتية للاغتراب تشكل أساساً قوياً بفعالية الشروط والمؤثرات الموضوعية. وبالنسبة للمتنبي فإن طبيعته الشخصية قد لعبت دوراً كبيراً في اغترابه المأساوي، واستناداً إلى أشعار الشاعر، وإلى المعروف عن حياته، فإن طبيعته تتسم بمزيتين واضحتين تماماً[5]: الأولى: قوة طبعه، والثانية: حدّيته التي لا يستطيع حيالها الإقدام على أية مراوغة شخصية، ولعلّ وضوحه القاسي كان سبباً كبيراً لكثير من المتاعب التي مرّ بها، وكثيراً ما تحدّث عن السيف، بل إن السيف لا معنى له إذا ظلّ مغمداً، فهو سيف في وظيفة الاستعمال.

(١) الديوان ٣٥٧/١.

(٢) الديوان ١٣٩/١.

(٣) الديوان ١٠٥/١.

(٤) الديوان ٢٦١/١.

(٥) الغربة في الشعر الأندلسي، أشرف دعدور، دار نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٧، ص٢٢.

الاغتراب الروحي:

إن العناصر الأساسية المكونة للاغتراب الروحي في التجربة الحياتية والشعرية للمتنبي يمكن إجمالها في ثلاثة عناصر:

أولاً- الأصل:

يمكننا أن نعدّه يشكل خلفية تاريخية مأساوية تهطل منها معطيات أدبية وفلسفية في البلاء والعزاء والإصرار الدائم على تلمس الجذور الدامية للمأساة.

إن سيرة حياة المتنبي تشكل لغزاً كبيراً لم يسعفنا الدهر على الوقوف عليه، وكل ما عرفناه عن طريق الدارسين أن والده كان سقاء في الكوفة[6]، ولكن الظروف التي رافقت دراسته في كتاتيب أبناء العلويين جعلت أحدهم في «المتنبي يسترد أباه» يذهب إلى أن والد المتنبي كان من كبار العلويين، بل كان ابن كبير الدعاة، وما كان التستر على اسمه إلا حفاظاً على حياته، ويذهب للاستدلال على ذلك بحصر كثير من أشعاره التي كان المتنبي يلمح إلى ذلك الأصل الرفيع، فهو يرى أنه يلخص مأساة العلويين بقوله[7]،[8]:

أبني أبينا نحن أهل منازل

أبداً غراب البين فيها ينعق

وها هو يتهدّد الناس كافة، ملوكهم قبل عامتهم[9]:

ميعاد كلّ رقيق الشفرتين غداً

ومَنْ عصى من ملوك العرب والعجم

وها هو يؤنب نفسه باستفهام يغلب على مفهومه التقريع على ما هو فيه[10]:

إلى كم ذا التخلف والتواني

وكم هذا التمادي في التمادي

وشغل النفس عن طلب المعالي

ببيع الشعر في سوق الكساد

(٦) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣١، ٣٦٢/٥، المنتظم، ابن الجوزي، ٥٦/٧، ١٠٢.

(٧) المصدرين السابقين.

(٨) الديوان ١٢٥/١.

(٩) الديوان ١٣٩/١.

(١٠) الديوان ٢٠٨/١.

فالمتنبي على ما يبدو كانت ماساته تتعمق، وجراحه النازفة تلحّ عليه عندما يبحث عمّن يمكن أن يأخذ بيد هذه الأمة فيخلصها من التردّي الذي يلح عليها، ولكن أينما توجّه كانت جراحه النفسية تزداد عمقاً فها هو يرى أن الأطلال التي تستحق الرثاء والبكاء هي الهمم لأن الإنسان بلا همّة أقرب ما يكون إلى الغنم[1]:

أحقُّ عافٍ بدمعك الهمم
أحدث شيء عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما
تفلح عُرْبٌ ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسبٌ
ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطنتها أمم
تُرعى بعيدٍ كأنها غنم

فموضوع النسب والهمة شكلاً نقطة الارتكاز الأولى في اغتراب المتنبي الروحي، فالملك ينبغي أن يكون للعرب، ولكنهم لا يملكون الهمة العالية، لذا فإنهم لن يفلحوا، لذا فإنه كان يكثر من التطواف علّه يوافق ملكاً يمتلك تلك الهمة، فاضاف إلى غربته الروحية غربة مكانية.

ثانياً- المعرفة:

تمثل المعرفة الأصل الثاني لاغتراب المتنبي الروحي، ولقد أظهرت سيرة حياته أنه كان وعاء للعلم والمعرفة، فلم ينشغل بالمطامع الدنيوية الرخيصة، بل أخذه أهله بالتثقيف، فارسلوه مبكراً إلى الكتاتيب[2]، وخرجوا به إلى البادية[3]، وكان يساعده على ذلك عقل متيقظ يقول محمد بن يحيى العلوي:

«كان أبو الطيب المتنبي وهو صبي ملازماً للورّاقين، فكان علمه من دفاترهم، قال: أخبرني ورّاق قال: ما رأيت أحفظ من المتنبي، فقلت له كيف ذلك: قال: كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً نحو ثلاثين ورقة يريد بيعه، فأخذ المتنبي ينظر فيه طويلاً فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه فهذا إن شاء الله تعالى يكون بعد شهر. قال: فقال له المتنبي: فإن كنت قد حفظته فما لي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب. قال: فأخذت الدفتر من يده وأقبل يتلوه حتى انتهى إلى آخره»[4].

(١) الديوان ٢١٩/١.
(٢) الصبح المنبي، يوسف البديعي، ص٦.
(٣) المرجع السابق.
(٤) أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري، يوسف البديعي، ن تحقيق: إبراهيم الكيلاني، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٤٤، ص٩.

وقد روى ابن جني أن سائلاً سأل في واحدة من جلسات سيف الدولة، كم لنا من الجموع على وزن «فعلى» فاجاب المتنبي على الفور لنا جمعان: ضربى وحجلى، ويضيف ابن جني بحثت عن ثالث لهذين الجمعين ثلاث ليال فلم أجد[5].

أضف إلى ذلك إطلاعه على ثقافة عصره، وقدرته الفائقة على توظيفها، ألم يتهمه الحاتمي بانه قد سطا على فلسفة الإغريق[6]، ألم يصفه الآمدي مع أبي تمام بانهما حكيمان[7]، ألم يقبل على نهل الثقافة العربية الأصيلة في بادية السماوة[8]، ومع ذلك يرى الأعاجم ملوكاً يأمرون وينهون، لذا فإنه عاد ليواجه الزمن بحنق العالم كله[9].

ومَنْ كان عزمي بين جنبيه حثَّه
وخيَّل طول الأرض في عينه شبرا
صحبتُ ملوك الأرض مغتبطاً بهم
وفارقتهم ملآن من حنق صَدْرا

ثالثاً: أما أبرز عناصر الاغتراب الروحي التي كونت شخصية المتنبي فهي تفوّقه العقلي، وتمتّعه بمؤهلات ومزايا شخصية كبيرة تتناسب ودوره الطليعي الذي كان يعّد نفسه له.

فكانت غربة الذكاء النادر من سماته الأولى، لذا فإنه يرى أن[10]:

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن
يخلو من الهّم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية
شرّ على الحرّ من سقم على بدن

وقد تجلت الجدارات العقلية والأدبية ورهافة الشعور، وشجاعة الطبع في المتنبي منذ طفولته؛ انظر إليه وقد قيل له وهو في المكتب: ما أحسن هذه الوفرة! فقال[11]:

لا تحسن الوفرة حتى تُرى
منشورة الضفرين يوم القتال

(٥) المصدر السابق، ص١١.
(٦) الرسالة الموضحة، الحاتمي، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥م.
(٧) الموازنة بين الطائيين.
(٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص٣٠٣.
(٩) الديوان.
(١٠) الديوان ٣٣٦/١.
(١١) الديوان ١٠١/١.

علـــى فتـــى معتقـــلٍ صـــعدة

يعلّهـــا مـــن كـــل وافـــي الـــسبال

إن غربة الذكاء النادر كانت من سماته الأولى، فقد قال شعراً رائعاً في وقت مبكر.

وكما في كل العصور فإنّ الشخص المتفوق المرهف المبدع يجد نفسه غريباً[1]:

وهكـذا كنـت فـي أهلـي وفـي وطنـي

إن النفـيس غريـبٌ حيـث مـا كانـا

فاول غربة واجهت أبا الطيب في طريق الاغتراب الروحي الطويل كانت غربة النفس، وقد مرّت حياته الشعرية بتاثير من هذه الغربة النفسية، في ثلاث مراحل:

الأولى: اتسم شعره بالمبالغة والفخر المسرف بالنفس، يقول[2]:

أيّ محـــــــــلّ أرتقـــــــــي

أي عظـــــــــيم أتقـــــــــي

وكـــلّ مـــا قـــد خلـــق اللـــ

ـــــه ومـــا لـــم يخلـــق

محتقـــــر فـــــي همتـــــي

كـــــشعرة فـــــي مفرقـــــي

وكان شعره بفعل من هذه الغربة النفسية شركة بينه وبين الممدوحين.

الثانية: وتبدأ سنة ٣٣٧هـ وفيها عاد إليه الاتزان النفسي، وكان ذلك بعد التقائه بسيف الدولة، فاختفت ثورته على الناس والزمان.

الثالثة: وتبدأ بانفصاله عن سيف الدولة، وهجرته إلى مصر، واتصاله بكافور، وفي هذه المرحلة عاد إليه تشاؤمه وحقده على الزمن، وقد أحدثت هذه التحولات في أعماقه آثارا بعيدة ظلت تلازمه طوال حياته، بل لعلّ هذه التحولات الباطنية، هي التي منحت شخصيته تلك الجاذبية الباهرة، وذلك الإشعاع المتالق[3].

إن من مظاهر قوة شخصية المتنبي كان عقله الجبار، وقوة تدبيره، فالقوي هو الذي يملك عقلاً ذكياً حكيماً[4]،[5]:

فقـــر الجهـــول بـــلا عقـــل إلـــى أدب

فقـــر الحمـــار بـــلا رأس إلـــى رســـن

لا يعجـــبن مـــضيماً حـــسن بزتـــه

وهـــل يـــروق دفينـــا جـــودة الكفـــن

إن المتنبي شاعر مثقف، ظل يحترف تصنع الثقافات المختلفة ولكنه تصنع الأذكياء القادرين على إخفاء ذلك[6]:

يحـــاذرني حتفـــي كـــأني حتفـــه

وتنكرنـــي الأفعـــى فيقتلهـــا سُـــمّي

كـأني دحـوت الأرض مـن خبرتـي بهـا

كـأني بنـى الاسـكندر السّد مـن عزمـي

إن فهم ثنائية الاغتراب في شعر المتنبي يرتبط ارتباطاً مباشراً بالتشخيص القرآني للشعر والشعراء، والذي كان في جوهره حسماً إسلامياً واضحاً لحقيقة الشعر بوجه الجاهلية والوثنيات الشائعة منذ عصور ما قبل الإسلام.

وقد كانت الاتجاهات الجاهلية ثقيلة الوطأة في التصدّي للدعوة المحمدية العظيمة، وكان في مقدمة الافتراءات الجاهلية إنكار النبوة المحمدية، والإدعاء أن الآي الكريم شعر، أو نوع قريب منه، وأن النبي(ﷺ) شاعر.

وحيث إن المحيط العربي كن محيط شعر، فإن مجرّد القول بشاعرية النبي العظيم، كان يعني تخفيض قداسة الرسالة إلى مستوى الشعر الذائع في المحيط العربي ولذلك كان ردّ القرآن الكريم حازماً وصادقاً[7]:

﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

وقوله[8]:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾.

وقوله[9]:

﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ﴾.

وفي سورة الشعراء عرض القرآن الكريم فهماً صائباً عميقاً وشاملاً عن الشعراء محدداً مكانة الشاعر في الهداية أو الغواية وقيمته في الحالين[10]:

---

(١) الديوان ٣٥٧/١.

(٢) الديوان ١٤١/١.

(٣) في عالم المتنبي، عبد العزيز الدسوقي، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص٢٠.

(٤) مقالات في الأدب والنقد، داود سلوم، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦، ٣٨٢.

(٥) الديوان ٣٢٧/١.

(٦) الديوان ٢٠١/١.

(٧) سورة يس ٦٩.

(٨) سورة الطور ٣٠.

(٩) سورة الحاقة ٤١.

(١٠) سورة الشعراء ٢٢٤-٢٢٧.

﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا.....﴾.

إن القرآن الكريم في دفاعه عن النبوة والرسالة الإلهية والتغيير الاجتماعي الشامل القائم على الإيمان الإلهي والعدل قدم إدانة واضحة للشعراء الغواة والمتقلبين والمداحين والمتكسبين والثرثارين، والذين يقولون مالا يفعلون، منهياً صورة الشاعر الجاهلي القبلي المتأله، المغرورة، وداعياً إلى تبني الصورة الحقيقية للشاعر والتي استثناها بقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾.

من هذا المنطلق القرآني تاكدت الفكرة الجوهرية التي تنص على علاقة الشعر بالإيمان، والتي يمكن بها إدراك مدى صدق الشاعر وجديته، أو حقيقته بتعبير أدق.

إن المنطلق القرآن يقدم تصوراً شاملاً عن اغتراب الشاعر ومعاناته العجيبة التي لا حل لها إلا في الإيمان والالتزام والنظر بعين الحق، بحيث يرتبط الشاعر بأسباب الحياة والمعيشة والعلاقات الاجتماعية، وهي أسباب مادية، فإنه شان أي إنسان آخر يخضع لقوانين الحياة ومتطلبات العيش والضرورات الاجتماعية، وحيث ينتمي الشاعر إلى الشعر فإنه يحلق في فضاءات الأخيلة والرؤى بعيداً عن القوانين والعلل المادية للحياة وما من ضرورة في أن يؤدي ذلك التناقض بين أسباب الحياة ودواعي الشعر وسياحاته إلى الازدواجية ما دام الشاعر متمسكاً بيقينه الفكري وهداه الروحي إلا أنه من المؤكد أن اغتراب الشاعر هو حقيقة كل شاعر بالنهاية[1].

إن مسار القدمين شيء وهوى رأس الشاعر شيء آخر، فهوى رأس الشاعر هو الذي يستصفي واقع الحياة على النحو الذي يتخيله، فهو يعيد رسم العالم بصورة شفافة متنبئاً بالمستقبل أو حالما بالجديد.

وقد انتبه أفلاطون إلى قداسة الشعر لدى الشاعر الحقيقي، فالشاعر كائن مقدس، مثير للإعجاب، يخلب الألباب، إلا أنه لا مكان له في جمهورية أفلاطون، ولا بد من إرساله إلى دولة أخرى مكرماً معززاً ويذكر أفلاطون ذلك قائلاً في المحاورات[2]: «الأمر الذي تختص به دولتنا أن الإسكافي فيها إسكافي وليس ملاحاً واسكافياً في الوقت نفسه، ورجل الحرب رجل حرب، وليس تاجراً ورجل حرب في الوقت نفسه، وذلك هو شان الجميع. قال: هذا صحيح، يبدو إذن أنه إذا مثل رجل بارع في اتخاذ جميع القوالب وتقليد جميع المظاهر لينتج قصائده وينشدها للجمهور، فلنا أن نثني عليه، ما نفعل مع كائن مقدس مثير للإعجاب يخلب الألباب، ولكننا نقول له: ليس في دولتنا من يشبهه، ولا يمكن أن يكون فيها، ثم نرسله إلى دولة أخرى بعد أن ننثر العطور على رأسه ونضفر له الأكاليل».

لكن أفلاطون وهو يقصي الشاعر عن جمهوريته يبعد في الوقت ذاته أنصاره، فالشعراء في حالات الوجود الشعري والانخطاف هم أقرب الناس إلى عالم المثل[3] وإلى المثالية الأفلاطونية، إلا أن خشيته من الشعراء ليست فلسفية بالدرجة الأولى، بل هي خشية بتنظيم المدينة الأفلاطونية، التي تحتاج إلى تلاحم العقول المفكرة مع الأيدي العاملة والمحاربة.

ورغم أن الشاعر يغتني من الحياة، وتتعمق تجربته في الصراع السياسي والاجتماعي والحياتي بعامة، إلا أن عالمه ليس العالم المادي للناس الآخرين عندما يستولي عليه الشعر، بعبارة ثانية إن عالم الرؤى والأخيلة والأحلام والتأملات هو غير العالم الواقعي المعاش.

وفي العلاقة بين العالمين: المادي والرؤوي يبدأ اغتراب الشاعر الذي لا يستطيع الشاعر ذاته التحكم بحدوده مهما نضجت تجربته الشعرية، ومهما امتدت به خبرة الزمن، لأن أخيلة الشاعر الفنية والمتجددة لا تعترف بالزمن، وبطبيعة الحال إن الاغتراب اشعري والحياتي للشاعر يعود إلى عوامل ذاتية وموضوعية وعوامل روحية ومادية متداخلة كما أن قهر الاغتراب كإمكانية يرتبط أيضاً بسلسلة من العوامل الذاتية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ويمكن لنا إجمال عوامل الاغتراب في عاملين متميزين[4]:

الأول: الاغتراب الناجم عن طبيعة الشعر، لأن كل شعر هو تدفقات صورية لا محدودة، وتحليقات شعورية ولا شعورية تأتي في لحظة غياب الشاعر عن واقعه الحسي، فكل شعر هو نوع من العلو المغترب في وقت الخلق الشعري.

أما العامل الثاني فهو يوحد جميع الظروف المادية والأسباب الشخصية والعامة المؤدية إلى الغربة والمعاناة الدائمة، وبلا شك إن هذه الظروف والأسباب تلعب دوراً كبيراً في تغذية مضامين الشعر وتحديد اتجاه الشعر أو تغييره، وتتداخل العوامل تداخلاً معقداً إلى الحد الذي تصبح فيه عملية فرز الأسباب الرئيسة عن الثانوية في تحديد نوع المؤثرات المغربة من أشق العمليات التحليلية لأن نفس الشاعر المرهفة والشديدة الحساسية تكبر فيها الانفعالات أو تصغر خارج

(١) الاغتراب في حياة الشريف الرضى، عزيز السيد جاسم، دار الشروق الثقافية، بغداد، ص٢، ١٩٧٨، ص٨.

(٢) الكندي ورأيه في العالم، عزمي السيد، رسالة ماجستير، جامعة الكويت، ١٩٧٦، ص١٨٤.

(٣) مقدمة للشعر العربي، أودنيس، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ٨٥

(٤) الغربة في الشعر الأندلسي، مرجع سابق.

إمكانيات القياس الاعتيادية، فاستجابات الشاعر وردود فعله ليست بالأمر الذي يسهل تعيين حدوده.

لذلك يمكن القول: إن ثمة عوامل صغيرة أو غير معروفة أو لا شعورية قد تكون محرضاً فعالاً في تقرير اختيارات الشاعر وانتهاجاته السريعة أو طويلة الأمد.

ومن الثابت أن الأسباب اللاشعورية تسهم إسهاماً كبيراً في تكوين جانب كبير من جوانب العالم الشعري سواء أكان ذلك في المضمون أو في الشكل.

مما مر تبين لنا أن المتنبي أنموذج الشاعر المبدع الذي زرعه بالاغتراب العميق، المتجذر في النفس وفي الزمان والمكان، وقد برزت غربته عبر مئات الصور الشعرية الحزينة.

ويمكننا أن تعتبر أن منطلق اغترابه وأساسه العميق يكمنان في نفسية المتنبي وحياته وشعره، ويعتمدان على ثنائي المجد والفجيعة، ويقوم الثنائي المذكور على حقيقتين تنطويان على مفارقة ماساوية[1]؛

الحقيقة الأولى: شاعرية المتنبي وتفوقه وإحساسه بأنه ينبغي أن يكون في الصف الأول من الحياة.

أما **الحقيقة الثانية**: فهي ما لقيه المتنبي من عدم تقدير، بل ومن مطاردة، إذ سجن في شبابه[2]، وأهين في بلاط سيف الدولة[3] وفرضت عليه الإقامة في مصر[4]، وقتل في رحلة عودته من خراسان[5]، وتكمن المفارقة الدامية أن قادته شاعريته الفذة إلى حتفه.

إن المتنبي كان يمتلك موهبة فنية عاتية وانفعالاً حاراً، وعاطفة متاججة، وخيالاً خصباً، وفوق هذا كله كان يملك جاذبية الشخصية، كل هذه العناصر التي شكلت شخصية المتنبي ويجوز لنا أن نردد قوله[6]:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي

وبنفسي فخرت لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضا

د وعوذ الجاني وغوث الطريد

فهذا من أكبر الفخر، وهذا من أكبر معاني الغربة التي عاشها المتنبي، حتى لقد بدا الأستاذ محمود شاكر غريباً في تعليقه على البيتين حين قال: «فما من قوم يفخر بهم» كلم من نطق الضاد «غير أبناء علي رضي الله عنه وفاطمة»[7] مع أنه رفض ذلك في مكان سابق وأصر على نسبته إلى عيدان السقاء[8]، مع أن المتنبي يرفع نفسه فوق قومه، ولا يمكن أن يفعل ذلك من ينتسب إلى علي وفاطمة عليهما رضوان الله، لا ولا من يدعي الانتساب إليهما.

* * *

(١) في عالم المتنبي، عبد العزيز الدسوقي، مرجع سابقن ص٢٣.
(٢) الديوان ١/ ١٦١.
(٣) الديوان ١١٨/٢.
(٤)
(٥) الديوان ٢/ ٤٩٨-٥٠٠.
(٦) الديوان، تحقيق عبد الوهاب عزام ص٢١.
(٧) المتنبي، محمود شاكر، ص١٦٠.
(٨) المرجع السابق، ص١٣٨.